المبالغة في الصورة البيانية

بقلم
الدكتور أيوب عبد العزيز بدران
مدرس البلاغة والنقد

عندما نقرأ أو نسمع كلمة « مبالغة » فإنه سرعان مايقفز إلى أذهاننا ذلك التناهي في إدعاء بلوغ الصفات حداً مستحيلا أو مستبعداً .

ولقد أفاض العلماء في دراسة المبالغة فوضعوا حدودها ، وبينوا ضروبها المختلفة ، وأساليبها المتنوعة ، كما ميزوا المقبول منها والمرفوض ، حتى لانكاد نجد كتاباً من كتب النقد أو البلاغة يخلو من حديث عن هذا اللون من الكلام سواء كان الحديث تحت اسم المبالغة ، أو الغلو ، أو الإفراط ، أو الأغراق ، أو الإفراط فى الإغراق ، أو الإفراط فى الصفة أو الإيغال أو التبليغ ، أو التتميم ، إلى آخر تلك الأسماء التى تدل على تضخيم المعنى والتهويل فيه ، فالغرض واحد ، وإن اختلفت الترجمة عنه .

ولم يقتصر إختلاف العلماء على تسمية هذا اللون من الكلام باسم محدود ، ولكنهم اختلفوا أيضاً فى قبولها ورفضها ، فمنهم من يقبلها ، ومنهم من يرفضها ، ومنهم من يقبل ضروباً منها ، ويرفض أخرى .

يقول إبن رشيق : والمبالغة ضروب كثيرة ، والناس فيها مختلفون ، منهم من يؤثرها ، ويقول بتفضيلها ، ويراها الغاية القصوى فى الجودة ، وذلك مشهور من مذهب نابغة بنى ذبيان ، وهو القائل : أشعر الناس من استجيد كذبه وأضحك من رديئه ، ومنهم من يعيبها وينكرها ويراها عيباً وهجنة فى الكلام. قال بعض الحذاق بنقد الشعر ، المبالغة ربما أحالت المعنى ولبسته على السامع ،

فليست لذلك من أحسن الكلام ، ولا أفخره ؛ لأنها لاتقع القبول كما يقع الإقتصاد وما قاربه (١) .

ومع أن الذي يهم هذا البحث هو « أنماط المبالغة في الصوره البيانية » إلا أنه لامفر من كلمة توضح مذهب العرب القدماء في إستخدام أسلوب المبالغة في التعبير ، فأقول . المبالغة أسلوب عريق من أساليب البيان الرفيعة ، ومظهر من مظاهر الاقتدار على صوغ الكلام وحوكه، تفي بحاجات النفس الشاعرة ومطالبها وتتسع لمعاني الشعر أغراضه ، يفرغ فيها الأديب مايحس به من آلام وأشجان، ويصيب في قوالبها مايجيش به صدره من شوق ملتهب وعواطف مشتعلة، ويسهر في بوتقتها ماتمليه به نفسه من مشاعر وأحاسيس ، وهي مسلك من مسالك العرب في الكلام ومذهب مشهور من مذاهبهم ، يلجأون إلى التعبير بهـا في مقامات المدح أو الذم أو الاعتذار أو الفخر أو الرثاء ، إلى آخر تلك المواقف التي تحتاج إلى المبالغة في القول والإفراط فيه ، فها هو ذا المهلهل بن ربيعة يصور شجاعته في الحرب ، وقوة بأسه في القتال فيقول :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور (٢)

فقد أدعى أنه إذا نزل إلى ساحة الحرب وميدان القتال يستطيع بضربات سيفه القوية على رءوس أعدائه أن يسمع تلك الضربات القاصمة التي تقد أعناق أعدائه قدا من بحجر ، ذلك المكان الذي يبعد عن موطن الشاعر مسيرة عشرة أيام .

ولولا أن المبالغة مذهب مشهور من مذاهب العرب في التعبير ، وطريقة

---

(١) العمدة ٢ / ٤٣

(٢) حجر بفتح الحاء : مدينة باليمامة وأم قراها ، والبيض بفتح الباء جمع بيضه وهي الخوذة التي توضع على الرأس وقت الحرب وأراد بالذكور السيوف والذكر من الحديد : أصلبه وأجوده — العمدة : ٢/ ٥٠ وتحرير التحبير ص : ٣٢٤ :

معروفة من طرائقهم ما استدرك على حسان بن ثابت عدم مبالغته فى وصف قومه بالكرم والشجاعة فى قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دماً
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا أبنما

حيث قال له النابغة : إنك لشاعر لولا أنك قلت : الجفنات والأسياف فقللت العدد ، ولو قلت : الجفان والسيوف لكان أكثر .

وقلت : يلمعن فى الضحى ، ولو قلت : يبرقن فى الدجى لكان أبلغ فى المديح ؛ لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً ، وقلت : يقطرن من نجدة دماً ، فدللت على قلة القتل ، ولو قلت : يجرين أو يفضن لكان أكثر لانصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، فقام حسان منكسراً . (١)

فالنابغة يعلم أن حسان لا يريد وصف قومه بالكرم المتواضع الذي يظهر فى عدد قليل من الجفنات ، ولا يريد كذلك أن طالبي معروفهم قليل كما تدل عليه عبارة (يلمعن فى الضحى) لأن اللمع فى الضحى أقل ظهوراً من البرق فى الدجى ، ولهذا لفته إلى مافى عبارته من قصور ، ولما ذكر حسان أنهم ولدوا بنى العنقاء وأبنى محرق فإنه إنما فخر بأبناء قبيلته ، والعربى حين يفخر لابد وأن يذكر مناقب الآباء ، وأن ينص عليها نصاً صريحاً ، وأن يشغل السامع بمآثرهم وذلك أدل على العراقة فى مجتمع يقدس المناقب ، ويعنى بالأصول الرواسخ والسكوت عن الآباء يوحى بأن هؤلاء الآباء ليست لهم مكارم يحرص الأبناء على إذاعتها ، وهذا مطعن كبير . (٢)

حتى أولئك الأعلام الذين يحتجون بأقوالهم فى عدم قبول المبالغة نراهم يستجيدون القول المبالغ فيه ويعجبون به أيما إعجاب .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ١١ د. شوقى ضيف .

(٢) خصائص التراكيب : ١٤ د / محمد أبو موسى .

فقد ورد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه رفع من شأن زهير وفضله على غيره من الشعراء ، لأنه كان لا يعاظل فى الكلام ، ويتجنب حوشى الألفاظ ولا يمدح أحداً إلا بما هو فيه . (١)

ومع ذلك فقد روى عنه أنه حينما سمع شعر زهير فى مدح هرم بن سنان وقومه بقوله :

قوم أبوهم سنـان حين تنسبهم   طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

فقد قالوا : إنه لما سمع هـذا القول أعجب به وتمنى لو كان فى مدح أهل بيت سيدنا رسول الله ﷺ . (٢)

هذا هو مذهب العرب فى المبالغة وهـو ماعناه الخطيب القزوينى بقوله : « أن يدعى لوصف بلوغه فى الشدة أو الضعف حداً مستحيلا أو مستبعداً ، لئلا يظن أنه غير متناه فى الشدة أو الضعف » . (٣)

وواضح أن المبالغة المقصودة هنا هي مبالغة فى مقدار الصفة ، بمعنى أنها مبالغة فى المثبت وليست مبالغة فى الإثبات .

أنواع المبالغة

والمبالغة قد تكون فى إثبات الصفة ، وقد تكون فى مقدارها وقد تكون فيهما معاً ، تقول فى وصف زيد بالطول : إنه لطويل وتقول : يـكاد أعلاه يلامس السحاب (٤) ، وتقول : إن أعلاه يكاد يلامس السحاب .

---

(١) الأغانى : ٣ / ١٢٠٢ ، وأسرار البلاغة : ١٢١ ، والبديع من المعانى والألفاظ : ٥٥ د / عبد العظيم المطعنى .

(٢) البلاغة والنقد الأدبى : ٣٣ د / يوسف البيومى

(٣) بغية الإيضاح : ٤٧/٤ (٤) دراسة فى علم البديع : ٣٨ د / محمد أبو موسى

ففي الحالة الأولى المبالغة في إثبات صفة الطول لزيد ، وفي الثانية المبالغة في مقدار صفة الطول نفسها ، وفي الثالثة المبالغة فيهما معاً .

وإذا تتبعنا الأساليب العربية الرفيعة وجدنا منها مايدل على المبالغة في إثبات الصفة ، ومنها مايدل على المبالغة في مقدارها ، ومنها مايدل على المبالغة فيهما .

فمن الأساليب التي تدل على المبالغة في إثبات الصفة: أساليب التوكيد جميعها، سواء أكان التوكيد لفظياً أم معنوياً ، وسواء أكان التوكيد بأداة أم بدونها ومنها أيضاً أساليب القصر بطرقه المختلفة، وأسلوب الكناية ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وعكسه ، وأسلوب الإطناب بصوره المختلفة .

ومن الأساليب التي تدل على المبالغة في مقدار الصفة صيغ المبالغة النحوية ، وحسن التعليل ، وأسلوب التشبيه وأساليب التخييل .

ومن الأساليب التي تدل على المبالغة في إثبات الصفة والزيادة في مقدارها : أسلوب الاستعارة ، هذا هو مدلول كلمة مبالغة بمعناها العام الشامل ، ومن ثم فإنها تتسع لتشمل معظم الأساليب العربية :

ولما كانت القيمة البلاغية لأي أسلوب تتوقف على مدى مايحققه من مطابقة لمقتضى الحال ، مع مايؤديه من مبالغة ؛ فقد رأيت أن أدرس الصورة البيانية (التشبيه والمجاز والكناية) من زاوية دلالتها على المبالغة ،إذ أن الصورة البيانية تساهم في عملية إقناع المتلقي — والتأثير فيه عن طريق شرح المعنى وتوضيحه ، وهي تحقق نفس الغاية عن طريق المبالغة في المعنى .

« إذن فالصلة بين المبالغة والتصوير والبيان صلة وثيقة ؛ وذلك أن المبالغة تعد وسيلة من وسائل شرح المعنى وتوضيحه، عندما يراد تمثيل المعنى، أو تأكيد بعض عناصره الهامة ، لذلك قرن البلاغيون المبالغة بالإبانة في حديثهم عن أغراض التشبيه والاستعارة . كما فعل ابن قتيبة ، والرماني ، والعسكري ،(١)

---

(١) الصورة الفنية : ٣٨٠ د / جابر عصفور

والشيخ عبد القاهر الجرجانى وإبن سنان الخفاجى ، والفخر الرازى ، وإبن الأثير ، وإبن أبى الإصبع المصرى ، ويحي بن حمزة العلوى ، والخطيب القزوينى والعز بن عبد السلام ، حتى رأينا إبن رشيق يربط بين المبالغة وصور البيان فيجعل رفض المبالغة كلها وعيبها رفض للتشبيه ، وعيب الاستعارة ، فيقول : لو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة (١) .

المبالغة فى التشبيه

التشبيه فن من فنون القول ، ووسيلة من وسائل التعبير، له أصوله وقواعده كما أن له خصائصه ومميزاته .

ولقد إهتم العلماء إهتماماً لافتاً بدراسة التشبيه فاجتهدوا فى وضع قواعده وأصوله ، وأفاضوا فى بيان خصائصه ومميزاته .

وهذا الإهتمام راجع إلى شيوع هذه الخاصيه وجريانها فى كثير من فنون الكلام ، فضلا عن كثرتها فى القرآن الكريم ، وحديث رسول الله ﷺ وكأنها جزء أصيل فى بلاغة اللغة وآدابها ، ومن هنا إجتهدوا فى دراسته والكشف عن أسراره ومواطن التأثير فيه . (٢) كذلك قرنوا بالحديث عنه الحديث عن المبالغة والبيان والإيضاح ، حتى جعل بعضهم الغاية من التمثيل — وهو نوع من التشبيه — المبالغة فى الإيضاح والبيان .

يقول العز بن عبد السلام : « إن الغاية من التمثيل هي المبالغة فى الإيضاح والبيان حتى يصير الغائب كالحاضر ، والمتخيل كالمتحقق ، والمتوهم كالمتيقن ، ولذلك كثرت الأمثال فى كتاب الله عز وجل . (٣)

---

(١) العمدة : ٢ / ٤٤

(٢) التصوير البيانى ص : ٢٥ د. محمد أبو موسى

(٣) الإشارة إلى المجاز : ٩٢ / نقلا عن كتاب الصورة الفنية : ٣٨٠

ويجعل أبو هلال العسكرى التشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأثيراً، وهو من محمود المبالغة فيقول : التشبيه : يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه . (١)

ويقول : التشبيه الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ... وذلك كقولك : « زيد شديد كالأسد » فهذا القول الصواب فى العرف ، وداخل فى محمود المبالغه . (٢)

ويرى ابن سنان الخفاجى أن حسن التشبيه يرجع إلى إفادة المبالغة والغلو فيقول : يمثل الشيء بما هو اعظم واحسن وأبلغ منه فيكون حسن ذلك لأجل الغلو والمبالغة . (٣)

ويجعل يحي بن حمزة العلوى إفادة التشبيه المبالغة مقصده الأعظم وبابه الأوسع فيقول : المقصد الأول فى إفادته للبلاغة ، وهـذا كقوله تعالى : (وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام) . (٤)

فشبه السفن الجارية على ظهر البحر بالجبال فى كبرها وفخامة أمرها على جهة المبالغة فى ذلك، وهكذا القول فى جميع تصرفات التشبيه ، فإنه لاينفك عن إفادته للبلاغة وإلا لم يكن تشبيهاً لأن إفادته للبلاغة هو مقصده الاعظم وبابه الأوسع . (٥)

ويقول صاحب فن التشبيه متأثراً بما سبق : لم ترد تشبيه الشيء بغيره إلا وأنت تقصد به تقرير المشبه فى النفس بصورة المشبه به ، أو بمعناه ، فيستفاد من ذلك المبالغة فيما قصد من التشبيه على جميع وجوهـه . . . وهـذا القول ينسحب على جميـع وجوه التشبيه ، فانه لايخلو من إفادة المبالغة فى حال من الأحوال، وإلا لم يستحق أن يكون تشبيهاً لأن إفادته المبالغة هى مقصده الأعظم وبابه الأوسع . (٦)

---

(١) الصناعتين : ٢٤٩ (٢) السابق : ٢٤٥ (٣) سر الفصاحة . ٢٣٧

(٤) الرحمن : ٢٤ (٥) الطراز : ٢٧٤/١ (٦) فن التشبيه : ٧١،٧٠/١

ويقول الدكتور بدوي طبانه : ويميل الشيء بما هو أعظم فى الاتصاف أو أحسن منه فى الصورة ، أو المعنى ، فيأتى الحسن حينئذ من ناحية الغلو والمبالغة وهذا كقوله تعالى : (وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام) فشبه السفن الجاوية على ظهر البحر بالجبال فى كبرها وفخامة أمرها على جهة المبالغة فى ذلك، وإفادة التشبيه المبالغة من أعظم مقاصده ولهذا لانكاد نجد تشبيهاً خالياً عن هذا القصد . (١)

هذه بعض أقوال العلماء فى افادة التشبيه المبالغة ؛ والمقام لايتسع لمناقشتها ولكن افادة التشبيه المبالغة ليس على اطلاقه ، لأن بعض أنواعه يفيد المبالغة وليس كل أنواعه كما سيأتى إن شاء الله

وإذا كان التشبيه كما قال العلماء يأتى لأغراض مختلفة وأهداف متنوعة .

كبيان حال المشبه ، او بيان مقدار حاله . أو تقرير حاله ، او بيان إمكانه أو تحسينه ، أو تقبيحه الى آخر تلك الاغراض ، فان دلالة التشبيه علي المبالغة تتوقف علي نوع الغرض الذي سيق التشبيه لأجله ، فاذا كان الغرض من التشبيه بيان الحال ـــ والمقصود بالحال هنا الصفة ـــ أو بيان مقدار تلك الصفة ؛ فان التشبيه لايعدوا أن يكون وسيلة لتعريف المخاطب بشيء يجهله ، وذلك بقياس ذلك الشيء يجهله بآخر معلوم لديه ، ومن ثم لم يشترط البلاغيون لهذا النوع من التشبيه إلا أن يكون المشبه به مشهورا بوجه الشبه ، كما اشترطوا لبيان المقدار أن يكون الوجه فى المشبه به على قدره فى المشبه من غير زيادة ولانقصان، لئلا يلزم الكذب

يقول إبن يعقوب المغربى : « وأما بيان الحال فالغرض أن المخاطب جاهل به طالب لمجرد تصوره ؛ وذلك يكفى فيه كونه معروفاً فى المشبه به ليفيد معرفته فى المشبه ؛ فإذا قيل : مالون ثوبك المشترى؟ قلت : كهذا فيحصل الغرض بمجرد

(١) علم البيان : ١٠٤

العلم بكون هذا له سواد ؛ لأن ذلك هو المطوب ، ولايتوقف على كون هذا أتم فى السواد ؛ لأنه زائد على مطلق التصور ، والزائد على مطلق التصور لم يطلب بعد،وأما بيان المقدار فالمخاطب قد عرف الحال فى المشبه وهو طالب أو كالطالب لمقدار تلك الحال ، فلا بد أن يكون الوجه الذى هو الحال المطلوب مقداره فى المشبه به على قدره فى المشبه ، من غير زيادة ولانقصان ، وإلا لزم الكذب والخلل فى الكلام ؛ فإنه إذا قيل: كيف كان بياض الثوب الذي اشتريت ؟ وهو فى مرتبة التوسط فى البيان ، أو مرتبة التسفل ، وقلت « هو كالثلج » ليكون وجه الشبه فى المشبة به أتم ، كان الكلام كذباً . (١)

فهذا النوع من التشبيه لا يحمل أى قدر من المبالغة ، لأنه يكاد يساوى الحقيقة ويلتصق بها،ولذلك نرى الرمانى يلفت إلى هذا ويقسم التشبيه إلى قسمين تشبيه بلاغة ، وتشبيه حقيقة (٢) ، ومثل لتشبيه البلاغة بقوله تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) (٣) ومثل لتشبيه الحقيقة بقوله . هذا الدينار كهذا الدينار فخذ أيهما شئت،فالرمانى لايرى أية مفاضلة بين المشبه والمشبه به فى تشبيه الحقيقة ولذلك يدعو مخاطبه بأن يختار أيهما شاء .

ويقول بعضهم : إن هذا النوع من التشبيه — الذى هو بيان الحال — يكثر فى الفنون والعلوم لمجرد البيان والإيضاح ، فلا يكون له فى هذه الحالة أثر للبلاغة لخلوه من الخيال وعدم حاجته إلى التفكير العميق . (٤)

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروط التلخيص : ٣ / ٤٠٠ ، ٤٠١

(٢) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن : ٨١

(٣) النور : ٣٩

(٤) التصوير البيانى : ١٤٨ د / حفنى شرف .

أما إذا كان الغرض من التشبيه تأكيد صفة من صفات المشبه به بعقد مماثلة بينه وبين شيء آخر تكون هذه الصفة متمثلة فيه بصورة قوية واضحة ؛ لينقل الوضوح والقوة من المشبه به إلى المشبه ، ويتم للأديب ما يريد من نقل إحساسه إلى القارىء في أسلوب مؤثر بليغ ، فإن التشبيه يحقق قسطاً من البلاغة والتأثير يعجز أسلوب الحقيقة مهما بولغ فيه عن أدائه .

يقول الزركشي : فإنك إذا قلت «زيد أسد» كان الغرض بيان أنه متصف بقوة البطش والشجاعة ، وغير ذلك ، إلا أنا لم نجد شيئاً يدل عليه سوى جعلنا إياه شبيها بالأسد ، حيث كانت هذه الصفات مختصة به ، فصار هذا أبين وأبلغ من قولنا : زيد شهم شجاع قوي البطش . (١)

وإذا ثبت أن إفادة التشبيه المبالغة تتوقف على الغرض الذي سيق التشبيه لأجله ، فإن درجات المبالغة في التشبيه تتفاوت تبعاً لطريقة صياغته وتشكيله : إما باعتبار وجود عناصره كلها أو بعضها ، وإما باعتبار اختلاف الأداة التي تؤدي معنى التشبيه وتدل عليه وإما باعتبار إلحاق الفرع بالأصل ، أو إلحاق الأصل بالفرع مبالغة وادعاء أن الفرع فاق الأصل في وجه الشبه .

فبالنسبة إلى تفاوت درجات المبالغة في التشبيه باعتبار وجود عناصره كلها أو بعضها فإن البلاغيين قسموا التشبيه إلى مراتب ثلاث : جعلوا أقلها مبالغة ما ذكر فيها أركانه الأربعة ، ثم تليها ما حذف منها الوجه أو الأداة ، ثم أكثر مراتب التشبيه مبالغة ما حذف منه الوجه والأداة .

« تقول : هو كالأسد في شجاعته فتفيد ضرباً من الشعور بجراءته وأنه بلغ فيها مبلغاً يصح أن يلحق بالأسد وأن يشبه به .

فإذا قلت : « هو كالأسد » وحذفت وجه الشبه أفاد ضرباً من القوة والهيبة وغير ذلك مما توحي به هيئة الأسد .

---

(١) البرهان : ٣/٤١٠

ثم تقول : هو الأسد فتفيد حساً أقوى من سابقه ، وكأنك ترتقي بالتعبير درجة أعلى من حيث حذفت الأداة وحملت الأسد عليه .

كما تقول : هو صاحبك ، وهو أخوك فتفيد أن الخبر هو المبتدأ ، وأنه لافرق بينهما ، ولهذا قالوا : إن هذه الصورة توشك أن تقتحم باب الاستعارة لولا ماقالوه من ضرورة تقدير الأداة لصحة الحمل . (١)

ويقول الزركشي(٢) وأما التشبيه بغير حرف فيقصد به المبالغة تنزيلا للثاني منزلة الأول تجوزاً ، كقوله تعالى : (وأزواجه أمهاتهم) (٣) وقوله: (جنة عرضها كعرض السماء والأرض) (٤) وقوله (سراجاً منيراً) (٥) وقوله : (وهي تمر مر السحاب) (٦) .

وأما بالنسبة إلى تفاوت درجات المبالغة في التشبيه باعتبار اختلاف أداة التشبيه ، فذلك أمر يرجع إلى دلالة الأداة على التشبيه ، ولما كانت أدوات التشبيه ليست في درجة واحدة من الدلالة، فقد فرق العلماء بين التشبيه بالكاف ومثل وشبه ، وبين التشبيه بكأن ويماثل ويضارع ويضاهي ، وبينوا أن التشبيه بكأن أبلغ من التشبيه بالكاف :

يقول الإمام عبد القاهر : فإنك تقول : زيد كالأسد ، أو مثل الأسد تجد ذلك تشبيهاً غفلا ساذجاً ، ثم تقول : كأن زيداً الأسد فيكون تشبيهاً أيضاً إلا أنك ترى بينه وبين الأول بوناً بعيداً ؛ لأنك ترى له صورة خاصة، وتجدك قد فخمت المعنى وزدت فيه بأن أفدت أنه من الشجاعة وشدة البطش ، وأن قلبه لايخامره الروع ، ولا يدخله الذعر ، بحيث يتوهم أنه الأسد بعينه . (٧)

---

(١) التصوير البياني : ١٧٧ د / محمد أبو موسى .

(٢) البرهان : ٣ / ٤١٨ (٣) الأحزاب : ٦

(٤) الحديد : ٢١ (٥) الأحزاب : ٤٦

(٦) النحل : ٨٨ (٧) دلائل الإعجاز : ٢٨٦

فالكاف وإن كانت أصلا فى التشبيه إلا أن « كأن » أقوى فى الدلالة على إلحاق المشبه بالمشبه به ، فهى حين تستعمل يقوى وجه الشبه حتى يبدو للرائى أن المشبه هو المشبه به ؛ ولذلك قالت بلقيس كما ذكر القرآن (قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ، فلما جاءت قيل . أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو) . (١)

وإذا كان هو فعلا فلشدة الشبه فى نظرها استعملت « كأن » فى الجواب ، ولم تستعمل الكاف التي وردت فى السؤال . (٢)

وأما بالنسبة إلى تفاوت درجات المبالغة فى التشبيه باعتبار الحاق الفرع بالأصل ، أو إلحاق الأصل بالفرع ، فان الاصل فى التشبيه أن يلحق الناقص بالكامل فى الصفة ، فيشبه الشيء بما هو أقوى منه وأظهر فى وجه الشبه فيشبه الكريم بالغيث ، والشجاع بالأسد ، والنابه الشأن الرفيع المنزلة بالشمس وهذا فيه من المبالغة مافيه . ولكن الأديب ربما لا يكتفى بهذه المبالغة فيعمد الى قلب التشبيه لتأكيد تلك المبالغة ، فيشبه الغيث بالكريم ، والاسد بالشجاع والشمس بالرفيع المنزلة ، فيجعل المشبه مشبهاً به مدعياً أنه أتم وأكمل فى وجه الشبه ، حتى صار أصلا يقاس عليه ويشبه به ، والعلم فى ذلك ماقاله محمد بن وهيب فى مدح الخليفة المأمون :

وبدا الصباح كأن غرته ∴ وجه الخليفة حين يمتدح

يقول الامام عبد القاهر معلقاً على هذ البيت : فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل فى النور والضياء من الصباح ، فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح فرعاً ووجه الخليفة أصلا . . .

---

(١) النمل : ٤٢

(٢) روائع المعانى : ٤٥ ، ٤٦ د / عبد الحميد العبيسى

وجهته الشاعرة أنه يوقع المبالغة فى نفسك من حيث لاتشعر ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها ، لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه ، ويزجي الخبر على أمر مسلم لاحاجة فيه إلى دعوى ، ولا إشفاق من خلاف مخالف ، وإنكار منكر . . . والمعانى إذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب من السرور خاص ، وحدث بها نوع من الفرح عجيب فكانت كالنعمة التى لم تكدرها المنة . (١)

وقد أشار أبو هلال العسكرى (٢) ، وأبن جنى (٣) ، والزركشى (٤) إلى أن التشبيه المقلوب يفيد المبالغة .

وإذا ثبت أن أسلوب التشبيه يفيد المبالغة ، وإذا علمنا أن المبالغة قد تكون فى مقدار الصفة ، وقد تكون فى اثباتها وقد تكون فيهما فما هى اذن تلك المبالغة التى يحققها التشبيه ، أهى مبالغة فى مقدار الصفة ؟ أم هى مبالغة فى إثباتها ؟ أم فيهما ؟ والذى أطمئن اليه أن المبالغة التى يحققها التشبيه هى مبالغة فى مقدار الصفة ؛ وذلك للادلة الآتية :

أولا : أن الشيخ عبد القاهر عندما فرق بين التشبيه بالكاف والتشبيه بكأن نص صراحة على أن التشبيه بكأن يفيد زيادة في المعنى عنه في التشبيه بالكاف حيث يقول :

فإنك تقول : زيد كالأسد ، أو مثل الأسد ، أو شبه الأسد تجد ذلك تشبيهاً غفلا ساذجاً ، ثم تقول : « كأن زيداً الأسد » فيكون تشبيهاً أيضاً إلا أنك ترى بينه وبين الاول بوناً بعيداً ، لأنك ترى له صورة خاصة ، وتجدك

---

(١) أسرار البلاغة : ١٨١

(٢) الصون : ٦١ — ٦٤ نقلا عن الصورة الفنية ص ٣٨٨ .

(٣) الخصائص : ١/ ٣٠٠ (٤) البرهان : ٣/ ٤٢٧

قد فخمت المعنى وزدت فيه ، بأن أفدت أنه من الشجاعة وشدة البطش ، وبأن قلبه قلب لا يخامره الروع ولا يدخله الذعر بحيث يتوهم أنه الاسد بعينه.(١)

فقوله وتجدك قد فخمت المعنى وزدت فيه . . . الخ .

يدل دلالة واضحة على أن المبالغة التى يحققها التشبيه إنما هى زيادة فى مقدار الصفة ، وليست زيادة فى أثباتها .

والشيخ يعنى مايقول ، لأنه لما أراد ان يبين فضل الكناية على التصريح جعل وضع المزية فى الكناية فى اثبات الصفة ، وليس فى مقدارها ، فقال : ليس المعنى إذا قلنا إن الكناية أبلغ من التصريح أنك لما كنيت عن المعنى زدت فى ذاته ، بل المعنى انك زدت فى إثباته ، فجعلته أبلغ وآكد وأشد ، فليست المزية فى قولهم : جم الرماد أنه دل على قرى أكثر ، بل أنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو ابلغ ، واوجبته إيجاباً هو اشد ، وادعيته دعوى انت بها انطق ، وبصحتها اوثق . (٢)

ففهم من كلامه عن مزية « كأن » على الكاف ان المبالغة فى التشبيه هى زيادة فى مقدار الصفة ، وليست زيادة فى اثباتها .

ثانياً : إن الشيخ يقرن حديثه عن التشبيه بالمبالغة ، وقد يقرنه بالمبالغة والاغراق .

فعند حديثه عن بيت محمد بن وهيب فى مدح المأمون :

وبدا الصباح كأن غرته ∴ وجه الخليفة حين يمتدح

يقول : وجهته الساحرة انه يوقع المبالغة فى نفسك من حيث لاتشعر ، ويفيدكها من غير ان يظهر ادعاؤه لها ، لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على اصل متفق عليه . . . الخ.(٣)

---

(١) الاسرار : ٢٨٦ (٢) دلائل الاعجاز : ١٠٩؛١١٠

(٣) الاسرار : ١٨١

ويقول فى موطن آخر عند حديثه فى الفرق بين وجود الاداة فى التشبيه وحذفها ، «واعلم أن المعنى فى المبالغة وتفسيرنا لها بقولنا : جعل هذا ذاك، وجعله الاسد ، وادعى انه الاسد حقيقة ، أن المشبه الشىء بالشىء من شأنه أن ينظر إلى الوصف الذى يجمع بين الشيئين . . . فاذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه ، وألقى ماعداها فلم ينظر إليه ؛ فان هو قال : « زيـد كالأسد » كان قد أثبت له حظاً ظاهراً فى الشجاعة ، ولم يخرج عن الاقتصاد ، وإذا قال هو الأسد تناهى فى الدعوى ، إما قريباً من المحق لفرط بسالة الرجل ، وإما متجوزاً فى القول ؛ فجعله بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئاً . (١)

فذكره للاقتصاد ، والتناهي فى الدعوى ، وفرط بسالة الرجل ، ومتجوزا فى القـــول ، كل أولئك مما يدلنا على أن الشيخ يقصـــد المبالغة فى مقدار الصفة .

ونراه فى موضع آخر يطلق المبالغة على التشبيه المحذوف الوجه والاداة فيقول : ومتى صلحت الاستعارة فى شىء فالمبالغة فيه أصلح ، وطريقها أوضح ولسان الحال بهـــا أفصح ، أعنى أنك إذا قلت : ياابن الكواكب من أئمـــة هاشم ، ويا ابن الليوث الغر ، فأجريت الاسم على المشبه إجراءه على أصله الذى وضع له ، وادعيته له ، كان قولك : هم الكواكب ، وهم الليوث ، أو هم كواكب وليوث احرى أن تقوله وأخف مؤونة على السامع فى وقوع العلم به (٢) .

ومن يتأمل الأساليب البلاغية للتخييل عند الشيخ يلاحظ أنها بمثابة أوجه متعددة للمبالغة والاغراق فمثلا قول الشاعر :

ألا يارياض الحزن من أبرق الحمى ∴ نسيمك مسروق ووصفك منتحل

حكيت أبا سعد فنشرك نشره ∴ ولكن له صدق الهوى ولك الملل

---

(١) الاسرار : ٢٠٣ ؛ ٢٠٤ (٢) الاسرار ٢٠٣

تجـــد أنه قائم على التشبيه ، إلا أن الشاعر أراد التنـــاهي في المبالغة ، والاغراق فعكس التشبيه وجعل الممدوح هو المثال الذي تقاس عليه الاشيـاء وبذلك أصبح نسيم الرياض مسروقاً من نسيمه وجمالها محاكياً لجماله . (١)

ثالثاً : قـــرن كثير من البلاغيين المبالغة والغلو بالتشبيه ، كما جعـــل ابن سنان الخفاجي (٢) ويحى العلوى (٣) وابن الاثير (٤) وأبو هـــلال العسكري (٥) ود. على الجندى (٦) ،د بدوي طبانه (٧) ، ابن رشيق (٨).

كل أولئك مما يجعلنا نطمئن الى أن المبالغة التى يحققها التشبيه إنما هي مبالغة فى مقدار الصفة وليست مبالغة فى إثباتها .

وأكتفى بهذا القـدر على أمل أن يتيح الله لى فرصة أخـرى لاستكمال البحث فى عدد قادم إن شاء الله ، إنه نعم المولى ونعم المجيب .

وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) الصورة الفنية ص : ٣٨٩ وأسرار البلاغة : ٢٢٥

(٢) سر الفصاحة : ٢٢٧

(٣) الطراز : ٢٧٤/١

(٤) المثل السائر : ١٩٢/٢

(٥) الصناعتين ٢٤٥

(٦) فن التشبيه ٧١،٧٠،٦١

(٧) علم البيان ١٠٤

(٨) العمدة ٢ / ٤٤

المبالغـــة ، والاستعـــارة

الإستعارة لون من ألوان التعبير الرفيعة ، يلجأ إليها الأديب عندما يبلغ إحساســه بالأشياء حداً يغير من وجودها الحقيقي في نفســه ، فيخلــع عليها من شعـوره وإحساسـه وجـوداً جـديداً يحيلها إلى شيء آخــر فالـكريم يصير بحراً وغيثاً وسحاباً ، والشجاع أسداً ، والرفيع المنزلة النابه الشأن : شمساً وبدراً ، ونجماً ، والحليم جبلا، إلى آخر تلك الأشياء التي تتحول عن طبيعتها إلى طبيعة أخرى ، فالمتنبي حينما يقول :

فلم أر قبلي من مشى البحر نحوه ولا رجلا قامت تعانقه الأســد

لم نجد في البيت شيئين نحسهما جنباً إلى جنب ، ونلحق أحدهما بالآخر كما نفعل في التشبيه ، وإنما نرى أن حقيقة شيء من الأشياء قد خلعت على شيء آخر ، وأصبحت هذه الحقيقة طبيعة جديدة له تغير من وجوده العادي دونما قصد إلى قياسه على غيره ، ومقارنته به .

فالممدوح في بيت المتنبي لايشبه البحر ولا الأسد ، وإنما نراه بحراً وأسداً نحسه بحراً يجود بـكل مافي جوفه من درر وجواهر وحيتان ، لايقصده قاصد إلا عاد وهو حامل معه الخير والرزق الحلال .

ونتصوره أسداً بـكل مايتصف به الأسد من الشجاعة والمهابة والإقدام .

وبذلك أخرج المتنبي ممدوحه عن طبيعته العادية كفرد من أفراد البشر ، قد تتحكم فيه شهوات النفس ونوازع الهوى ، فيجود حيناً ويضن أحياناً ، ويكر مرة ويفر أخرى ، وإنما نراه بحراً وأسداً حقيقيين .

ومن ثم نرى الاستعارة خطوة أبعد في المبالغة ، وأدخل في التخييل من التشبيه الذي تظل صورة المشبه — حتى في أرقى أساليبه — عالقة بأذهاننا ، شاخصة أمام أعيننا ، تدنينا دائماً من الحقيقة وتذكرنا بها .

وإذا كان التشبيه فى أغلب صوره يفيد المبالغة كما رأينا ، فإن الاستعارة تؤدي قدراً أكبر منها ، إذ أننا لانخرج الأشياء عن حقائقها ونخلع عليها وجوداً جديداً إلا إذا كان شعورنا بها من القوة بحيث ينسينا طبيعتها المألوفة ، ويلقى عليها فى أنفسنا طبيعة أخرى . ولذلك يشترط البلاغيون فى الاستعارة تناسى التشبيه ، وإعتبار أن المشبه من جنس المشبه به ،وفرد من أفراده . يقول الدكتور / محمد أبو موسى : ومن هنا كان الحس بالشىء ورؤيته فى التشبيه غير الحس به ورؤيته فى الاستعارة ، وكأن بين أيدينا سلماً تتعاقب درجاته ، ويرتقى فيه الخيال درجة ، أو سلسلة تتواصل حلقاتها ، ويمضى فيها الخيال واحدة بعد واحدة ، تبدأ مع بداية الحس بالمشابهة بين شيئين مختلفين ، وتنتهى عند توهج الإحساس بصيرورتها شيئاً واحداً . (١)

ولقد تنبه العلماء إلى أن هناك علاقة قوية وصلة وثيقة بين المبالغة والاستعارة ، باعتبارهما وسيلة من وسائل توضيح للمعنى والإبانة عنه . «ولقد تبلورت تلك الصلة من خلال دراسة الأسلوب القرآنى فى التصوير ، فقد لوحظ أن القرآن يعنف فى خطاب الجاهلين تهويلا أو ترغيباً فيلجأ إلى طريقة خاصة فى تقديم المعنى تعتمد على المبالغة فى الوصف اعتماداً ملحوظاً (١) « بوساطة التصوير البيانى ، والذى من أهم وسائله : الاستعارة . ومن ثم أخذ العلماء يربطون بين المبالغة والاستعاوة وذلك كما فعل ابن قتيبة،والرمانى ، والعسكرى والباقلانى والشريفين : الرضى والمرتضى . فها هو ذا ابن قتيبة يبين أن الغرض من الاستعارة إنما هو : المبالغة التى هي سبيل للتوضيح واستقصاء الصفة، وأنها طريقه متعارف عليها بين القائل والسامع . فيقول فى قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » (٢) تقول العرب إذا أرادت تعظيم مهلك رجل عظيم الشأن ، رفيع المكان ، عام النفع ، عظيم الصنائع : أظلمت الشمس ، وكسف القمر لفقده ، وبكت الريح والبرق والسماء والأرض، يريدون

(١) التصوير البيانى : ١٧٦

(٢) أنظر الصورة الفنية : ٢٨٠

المبالغة فى وصف المصيبة ، وأنها قد شملت وعمت ، وليس ذلك بكذب ؛ لأنهم جميعاً متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه ، وهكذا يقولون فى كل ماأرادوا أن يعظموه ، ويستقصوا صفته . (١)

ويسير الرومانى فى نفس الاتجاه الذى بدأه ابن قتيبة ، فيجعل الاستعارة أسلوباً من أساليب المبالغة ، تستخدم لتوضيح المعنى والإبانة عنه . . ففى قوله تعالى : « سنفرغ لـكم أيها الثقلان » (٢) يقول الرمانى: والله عز وجل لايشغله شأن عن شأن ، ولـكن هذا أبلغ فى الوعيد ، وحقيقته « سنعمد » ، إلا أنه لما كان الذى يعمد إلى شيء قد يقصر فيه لشغله بغيره معه وكان الفارغ له هو البالغ فى الغالب مما يجرى به التعارف ؛ دللنا بذلك على المبالغة من الجهة التى هى أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة، ليقع الزجر بالمبالغة التى هى أعرف عند العامه والخاصة موقع الحـكمة . (٣)

ومنه قوله تعالى: (فأنشرنا به بلدة ميتاً) (٤) يقول الرمانى : النشر هاهنا مستعار ، وحقيقه : أظهرنا به النبات والأشجار والثمار فـكانت كمن أحييناه بعد إماتته ، فكأنما قيل : أحيينا به بلدة ميتاً ، من قولك : أنشر الله الموتى فنشروا وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنها من المبالغة ماليس فى أظهرنا .

فالرمانى يرى أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة ، وأبلغ فى كلامه من المبالغة ، بدليل قوله بعدها : « لتضمنها من المبالغة ماليس فى أظهرنا » .

ويسير ابو هلال العسكرى فى نفس الخط الذى سار فيه ابن قتيبة والرمانى فيجعل المبالغة غرضاً من أغراض الاستعارة المصيبة ، فيعرف الاستعارة بقوله:

---

(١) تأويل مشكل القرآن : ١٦٨ (٢) سورة الرحمن آية : ٣١

(٣) النكت فى أعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل : ٨٨

(٤) سورة الزخرف : ١١

« الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانه عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه » (١)

ويطبق هذا التعريف على آيات كثيرة من الذكر الحكيم، ففي قوله تعالى: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) (٢) يقول أبو هلال: حقيقته عمدنا، وقدمنا أبلغ؛ لأنه دل فيه على ما كان من إمهاله لهم، حتى كأنه كان غائباً عنهم، ثم قدم فاطلع منهم على غير ما ينبغي فجازاهم بحسبه.

ومنه قوله تعالى: (ولما سكت عن موسى الغضب) (٣) يقول أبو هلال معناه: ذهب، وسكت أبلـــغ؛ لأن فيه دليلا على موقع العودة في الغضب، إذ تؤمل الحال، ونظر فيما يعود به من عبادة العجل من الضرر في الدين، كما ان الساكت يتوقع كلامه.

ومنه قوله تعالى: (واشتعل الرأس شيباً) (٤) يقول أبو هلال: حقيقه كثر الشيب في الرأس وظهر والاشتعال أبلغ؛ لفضل ضياء النار على ضياء الشيب، فهو إخراج الظاهر إلى ماهو أظهر منه، ولأنه لايتلافى إنتشاره في الرأس كما لايتلافى إشتعال النار.

واذا انتقلنا إلى الاستعارة عند الإمام عبد القاهر نجده كثيراً مايقرن المبالغة بالاستعارة، فعند تقسيم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة نراه يحصر الفائدة من الاستعارة في المبالغة، فيقول: ومثال الاستعارة المفيدة قولنا: « رأيت أسداً » وأنت تعنى رجلا شجاعاً، وبحراً تريد رجلا جواداً . . . . وماشا كل ذلك، فقد استعرت اسم الأسد للرجل، ومعلوم أنك قد أفدت بهذه الاستعارة مالولاها لم يحصل لك، وهو: المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة.

---

(١) الصناعتين : ٢٧٤ (٢) الفرقان : ٢٣

(٣) الاعراف : ١٥٤ (٤) مريم : ٤

وايقاعك منه فى نفس السامع صورة الاسد فى بطشه واقدامه ؛ وبأسه وشدته ، وسائر المعانى المركوزة فى طبيعته ، مما يعود الى الجرأة .(١)

ويقول فى موطن آخر وهو يقسم الاستعارة إلى تصريحية ومكنية تقول : رأيت أسداً وأنت تعنى رجلا شجاعاً ، ورنت لنا ظبية وأنت تعنى امرأة . . . وما شاكل ذلك ، فالاسم فى هذا كله كما نراه متناولا شيئاً معلوماً يمكن ان ينص عليه ، فيقال : انه عنى بالاسم وكنى به عنه ، ونقل عن مسماه الاصلى فجعل اسماً له على سبيل الاستعارة والمبالغة فى التشبيه .(٢)

ويقول فى موضع آخر : إن المستعير يعمد الى نقل اللفظ عن أصله فى اللغة إلى غيره ، ويجوز به مكانه الاصلى الى مكان آخر لاجل أغراض ثلاثة هى : التشبيه والمبالغة والاختصار (٣)

وفى موضع آخر : يقسم التشبيه إلى صريح وغير صريح ، ويقصد بغير الصريح : الاستعاره . فيقول : ان التشبيه يقتضى شيئين مشابها ومشبها به ، ثم ينقسم إلى الصريح وغير الصريح ، فالصريح أن تقول : كأن زيداً الاسد فتذكر كل واحد من المشبه والمشبه به باسمه .

وغير الصريح أن تسقط المشبه به من الذكر وتجري اسمه على المشبه كقولك « رأيت أسداً » تريد رجلا شجاعاً شبيهاً بالأسد ، إلا أنك تغير اسمه مبالغة وإيهاماً الا فضل بينه وبين الاسد ، وأنه قد استحال الى الاسدية (٤)

ويقول فى بيان أن المجاز أعم من الاستعارة · إن كل إستعارة مجاز ، وليس كل مجاز استعارة ، وذلك أنا نري كلام العارفين بهذا الشأن : أعنى علم الخطابة ونقد الشعر ، والذين وضعوا الكتب فى أقسام البديع يجري على أن الاستعارة

---

(١) الاسرار : ٢٣ (٢) الاسرار : ٣٢

(٣) نفس المرجع : ١٩٤ (٤) الاسرار : ٣١١

نقل الاسم عن أصله إلى غيره للتشبيه على حد المبالغة . . . وأما ما نجده فى كتب اللغة من ادخال ماليس طريق نقله التشبيه فى الاستعارة . . . ليس بالمذهب المرضى ، بل الصواب أن تقتصر بالاستعارة على مانقله نقل التشبيه للمبالغة (١) .

وننتقل الى فخر الدين الرازي فى كتابه « نهاية الايجاز » فنجده يجعل الاستعارة مبالغة فى التشبيه فيقول فى تعريفها : الاستعارة : ذكر الشيء باسم غيره وإثبات مالغيره له لأجل المبالغة فى التشبيه (٢) .

ويقول : الاستعارة عبارة عن جعل الشيء الشيء ؛ أو جعل الشيء للشيء لأجل المبالغة فى التشبيه . (٣)

ويقول وهو يقسم الاستعارة إلى تصريحية ومكنية : أعلم أن الاستعارة تارة تعتمد التشبيه نفسه ، وتارة لوازمه ؛ فالأول ما إذا اشترك شيئان فى وصف وإحدهما أنقص من الآخر فيعطى الناقص اسم الزائد مبالغة فى تحقيق ذلك الوصف له ، كقولك : « رأيت أسداً » تعنى رجلا شجاعاً ، وغنت لنا ظبية ، وأنت تريد امرأة (٤)

ويجعل ابن أبى الإصبع الاستعارة مبالغة فى التشبيه .

فيقول : الاستعارة هى تسمية المرجوح الخفى باسم الراجح الجلى للمبالغة فى التشبيه (٥) كقوله تعالى : (وإنه فى أم الكتاب). (٦)

وكذلك يفعل الزركشى فى البرهان ، فيقول : والاستعارة إستفعال من العارية . ثم نقلت الى نوع من التخييل لقصد المبالغة فى التخييل والتشبيه والإيجاز نحو : لقيت أسداً وتعنى به الشجاع . (٧)

---

(١) الاسرار : ٢٢٦-٢٢٨

(٢) نهاية الايجاز : ٨١، ٨٢

(٣) نهاية الايجاز ٨٢

(٤) نهاية الايجاز : ٩٥

(٥) تحرير التحبير : ٩٧

(٦) الزخرف : ٦

(٧) البرهان : ٤٣٢/٣، ٤٣٣

ويؤكد الخطيب القزويني ذلك فيقول في تعريف الاستعارة التصريحية « وهى ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له .

وقد تقيد بالتحقيقية ، لتحقيق معناها حساً ؛ أو عقلا : أي التى تتناول أمراً معلوماً يمكن أن ينص عليه ، أو يشار إليه إشارة حسية أو عقلية ، فيقال إن اللفظ نقل من مسماه الأصلى فجعل إسماً له على سبيل الإعارة للمبالغة فى التشبيه. (١)

هذه بعض آراء العلماء فى إفادة الاستعارة المبالغة ، ومنها يتضح أن هناك علاقة قوية ووثيقة بين الاستعارة والمبالغة بحيث لايؤتى بها إلا لأجل المبالغة.

« تفاوت درجات المبالغة فى الاستعارة »

وإذا ثبت أن الاستعارة تفيد المبالغة فان درجات المبالغة فى الإستعارة متفاوتة ، اما باعتبار نوع اللفظ المصرح به فيها ؛ وإما باعتبار ذكر مايلائم المستعار منه ، أو المستعار له ؛ أو عدم ذكر مايلائم أحدهما .

أما بالنسبة لتفاوت درجات المبالغة فى الاستعارة باعتبار نوع اللفظ المصرح به ، فان الاستعارة تنقسم بهذا الاعتبار الى تصريحية ، وهى : التى صرح فيها بلفظ المشبه به ، وإلى مكنية ، وهى التى صرح فيها بلفظ المشبه ، مع ذكر صفة أو أكثر من صفات المشبه به .

وإذا كنا فى الاستعارة التصريحية ندعى أن المشبه من جنس المشبه به وفرد من أفراده ففى بوتقتها تنصهر الأشياء وتتحول عن طبيعتها الى طبيعة أخرى ليست لها فى الواقع ، فالشجاع تجعله أسداً ، والكريم غيثاً وبحراً ، والحازم سيفاً ، والرفيع المنزلة شمساً ؛ فاننا فى الاستعارة بالكناية نوغل فى

(١) بغية الايضاح : ٣ / ١٠٤ ، ١٠٥

الخيال ونمعن فى تأكيد تصور تلك الأشياء فى حياتها الجديدة، ليس بادعاء أن المشبه من جنس المشبه به وفرد من أفراده فحسب، وإنما باثبات لازم أو أكثر من لوازم المشبه به المشبه، وكأنها دعوي مصحوبة بالدليل والبرهان فضلا عن أنها تجسم المعنويات وتضفى عليها الحياة والحركة.

فالبحتري حين يريد أن يصور الموت لايراه وحشاً ضارياً، وإنما يراه وحشاً ضارياً ملطخة أظفاره بدماء ضحاياه فيقول فى مصرع الخليفة المتوكل:

صريع تحاشاه السيوف حشاشة ∴ يجود بها والموت حمر أظافره

وعلي محمود طه لايري أمواج البحر وحشاً يفترس غيره، وإنما يراه وحشاً هائلا فاغراً فاه يلوك الصخور بين شدقيه فيقول:

صاعدات تلوك فى شدقها الصخر ∴ وترمي به صدور الشعاب

ولبيد حينما يفتخر بأنه يمنع عادية البرد عن الناس باطعامهم؛ وإيقاد النار لهم فى وقت القحط والجدب؛ لايرى الريح إنساناً فحسب، وإنما يصورها إنساناً ماسكاً بزمام رايته يوجهها كيفما شاء، كذلك لايرى القرة أو الغداة دابة، وإنما هى دابة لها زمام يقودها به غيرها فيقول:

وغداة ريح قد كشفت وقرة ∴ إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

يقول الشيخ عبد القاهر موضحاً فضل الاستعارة فى البيت مقارناً بينها وبين الاستعارة التصريحية: «وذلك أنه جعل للشمال يداً، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجرى اليد عليه، كاجراء الأسد والسيف على الرجل فى قولك: « أنبرى لى أسد يزأر » وسللت سيفاً على العدو لايفل وإنما غايتك التى لامطمح وراءها أن تقول: أراد ان يثبت للشمال فى الغداة تصرفاً كتصرف الإنسان فى الشيء يقلبه، فاستعار لها اليد حتى يبالغ فى تحقيق التشبيه.

وحكم الزمام فى استعارته للغداة حكم اليد فى استعارتها للشمال ، إذ ليس هناك مشار إليه يكون الزمام كناية عنه ولكنه وفى المبالغة شرطها بين الطرفين فجعل للغداة زماماً ليكون أتم فى إثباتها مصرفه ، كما جعل للشمال يداً ليكون أبلغ فى تصييرها مصرفة . (١)

فقوله : « حتى يبالغ فى تحقيق التشبيه » ، وقوله : « ولكنه وفى المبالغة شرطها بين الطرفين » .

وقوله : فجعل للغداة زماماً ليكون أتم فى إثباتها مصرفة ، كما جعل للشمال يداً ليكون أبلغ فى تصييرها مصرفة كل ذلك مما يشير إلى وجه أبلغية الاستعارة بالكناية على الاستعارة التصريحية.

ويقول فى موضع آخر : وليس هذا الضرب من الاستعارة بدون الأول فى إيجاب وصف الفصاحة للكلام ، لا ؛ بل هو أقوي منه فى إقتضائها ، والمحاسن التى تظهر به ، والصور التى تحدث للمعانى بسببه آنق وأعجب . (٢)

كل أولئك مما يبين أبلغية الاستعارة بالكناية على الاستعارة التصريحية ؛ وذلك لأن الاستعارة التصريحية تقنع بجعل المشبه من جنس المشبه به ، أما الاستعارة بالكناية فإنها فضلا عن جعلها المشبه هو عين المشبه به ، تعمد إلى الماديات والمعنويات فتكسبها حياة جديدة وتضيف إليها صفات كثيرة من صفات المشبه به بحيث تبعدها عن واقعها الحقيقى ، وتأصل فيها طبيعتها الجديدة .

يقول الدكتور محمد أبو موسى : وسر بلاغه المكنية : أنها تكون فى أكثر أحوالها مظهراً لتصور الحياة فى الجماد أو تصوير المعانى وتجسيدها أو تشخصيها كشهيق جهنم ، وأظفار المنية ، ويد الشمال ، وكفى البأس ، وهذا اللون من التصوير له سحره وتأثيره ...

---

(١) أسرار البلاغة : ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) دلائل الإعجاز : ٤١٢ .

والزمخشري يدرك مافي هذه الاستعارة من القدرة على التصوير والتشخيص ويظهر ذلك في شرحه لأساليبها يقول في قوله تعالى : « وهـــو الذى مرج البحرين » هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً » (١) جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه ، وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة . (٢)

ولقدرة الاستعارة المكنية على البيان وإبراز المعنى وتصويره بصورة محسوسة يفضـــل بعض الباحثين فصلها عن الاستعارة واستقلالها باســـم « التشخيص » (٣) وهـــذا الرأى — على مافيه — يدل على القيمة البلاغية للاستعارة المكنية وأنها من المجاز في أعلى درجاته .

وقد صرح بهاء الدين السبكى بأن الاستعارة بالكناية أبلغ من الاستعارة التصريحية حيث قال « لم يتعرض المصنف (أى الخطيب) للتفاوت بين أنواع الاستعارة ، والذى يظهر أن الاستعارة بالكناية أبلغ من التصريحية ، وبه صرح الطيبي ولا إشكال فيه على رأي السكاكى ؛ فإنها كالجامعة بين الاستعارة والكناية » . (٤)

وهذا نص صريح فى أن الاستعارة بالكناية أبلغ من الاستعارة التصريحية؛ وذلك لاحتوائها على نوعين من البيان هما : الاستعارة والكناية .

ويرى الدكتور / مصطفى ناصف أن الاستعارة المكنية هي أرقى أنواع المجاز حيث يقول : « ونحن ندعى أن الحقيقة تنافس المجاز ، وأن المجاز فى تعبيرات كثيرة أمارة على معنى مجرد وراءه ، وأن قمة المجاز وهى الاستعارة المكنية ينبغى ألا تـكون مطمحاً دائماً متميزاً » (٥) ..

---

(١) سورة الفرقان : ٥٣

(٢) البلاغة القرآنية : ٤١٧ ، ٤١٨ ، والكشاف : ٩٦/٣

(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : ١٥٨ د / شوقى ضيف

(٤) عروس الأفراح ضمن كتاب شروح التلخيص : ٥٦٧/٤

(٥) الصورة الأدبية د / مصطفى ناصف ١٨٧ نقلا عن مفهوم الاستعارة: ١١٣

أما بالنسبة لتفاوت درجات المبالغة فى الاستعارة باعتبار ذكر مايلائم أحد الطرفين وعدم ذكره، فقد قسم البلاغيون الاستعارة بهذا الاعتبار إلى مرشحة ومطلقة ومجردة ، وجعلوا أقلها مبالغة المجردة ، وهي : ماذكر معها وصف من أوصاف المشبه ، وعللوا ضعف المبالغة فى هـــذا الضرب من الاستعارة بتجردها عما يقوى دعوى الاتحاد بين المشبه والمشبه به؛ لأنه لما ذكر فى الكلام وصف من أوصاف المشبه فكأن ذلك رجوع بالكلام إلى حقيقته ، وعود به إلى أصل وضعه ، ثم تلى المجردة المطلقة ، وهى التى لم تقترن بمـا يلائم أحد الطرفين : المستعار منه أو المستعار له ، فهى فى المرتبة الوسطى بين الترشيح والتجريد ، وذلك لاطلاقها عما يقويها أو يضعفها ، أما المرشحة فهى أقوى الاستعارات وأبلغها وذلك لأن الأديب كما سبق لايلجأ إلى الاستعارة إلاعندما يبلغ إحساسه بالأشياء حداً يغير من وجودها الحقيقى فى نفسه ، فيخلع عليها من إحساسه وجوداً جديداً يحيلها إلى شىء آخر على أن إحساس الأديب قد لايقف عند هذا الحد ، بل يمتد خياله فيمضى فى تعداد صفات المشبه به حتى ينسينا تماماً أنه يتحدث عن المشبه . فعلى محمود طه حينما رأى صورة النجوم تنعكس على صفحة مياه البحر الزرقاء ، وأراد أن يصور ذلك المنظر العجيب لم يشبه النجوم بالفتيات ، وإنما جعلها فتيات جميلات نزات تستحم فى ماء البحر وترقص على أنغام أمواجه الساحرة عاريات مهدلات الشعور فقال :

وانتحينا من جانب البحر مجرى ∴ مطمئن الأمواج شاجى الخرير

نزلات فيه تستحم النجوم الز ∴ هر فى جلوة المســاء المنير

راقصات على هـــزج المو ∴ ج عاريات مهــدلات الشعور

فإنه لما صور النجوم بالفتيات على طريق الاستعارة المكنية ، رشح ذلك بذكر أنها ترقص على أنغام الموج ، وأنها عاريات ، ثم جعلها أيضاً مهدلات الشعور ، وهكذا يظل الشاعر يأتى بأوصاف الفتيات حتى أنسانا أنه يتحدث عن النجوم ، وأنه فعلا يتحدث عن فتيات حقيقيات .

ومنه قول المتنبي :

فلا تنلك الليالي إن أيديها .:. إذا ضربن كسرن النبع بالغرب
ولا يعن عدواً أنت قاهره .:. فإنهن يصدن الصقر بالخزب
وربما احتسب الإنسان غايتها .:. وفاجأته بأمر غير محتسب
وماقضى أحـــد منها اسيانته .:. ولا انتهى أرب إلا الى أرب

فإنه لما جعل لليالي يداً على طريقة الاستعارة المكنية، وأضفى عليها صفات الآدمي وصورها في صورته ، أتبع ذلك بذكر ضربها باليدين ، وانها تكسر النبع — وهو شجر صلب ينبت في رءوس الجبال — بالغرب — وهو شجر رخو ينبت على الأنهار، وانها إذا اعانت العدو المقهور تصيرة غالباً قاهراً ، وانها بارعة في الحيلة ، تصيد الصقر الجارح بالخزب ، وهو : ذكر الحبارى ، وهو مثل عندهم في الجبن ، وانها تورى بغاياتها ، ثم تفجأ بأمر غير محتسب، وهكذا يمضي الشاعر في تصوير الأيام في هذه الصورة ويعدها وينميها ويخلق منها بهذه الإضافات ذلك الشكل الحي الغريب . (١)

• هي عند الزمخشري من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا فعند تفسير قوله تعالى: (اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فمار بحت تجارتهم) (٢) يقول الزمخشري : فإن قلت : هب ان شراء الضلالة بالهدي وقع مجازاً في معنى الاستبدال فما معنى ذكر الربح والتجارة ؟ وكأن ثمة مبايعة على الحقيقة. قلت: هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهـــو : ان تساق كلمة مساق المجاز ثم تقضى بأشكال لها واخوات اذا تلاحقن لم تر كلاماً احسن منه ديباجة ، وأكثر ماء ورونقاً ، وهو المجاز المرشح . (٣)

---

(١) التصوير البياني : ٣٠٤

(٢) البقرة : ١٦ (٣) الكشاف ١ / ١٩٢

إذن فالاستعارة المرشحة هي التى قرنت بمزيد من أوصاف المستعار منه إمعاناً في تأكيد تناسي التشبيه ، وإدعاء أن المشبه هو عين المشبه به ، ومن ثم فالبلاغيون يعتبرونهـا أرقى أنواع الاستعارات وأبلغها ، إذ هي أقدر على الوفاء بحاجات النفس الشاعرة ومطالبها .

وإذا تبين مما تقدم أن الاستعارة تفيد المبالغة ، فما نوع المبالغة الذي تحققه الاستعارة ؟ أهي مبالغة في مقدار الصفة ؟ أم هي مبالغة في إثباتها ؟ أم فيهما معاً ؟

ويفهم من كلام العلماء وأصحاب الرأي أن الاستعارة تشتمل على نوعين من المبالغة : مبالغة في إثبات الصفة ، ومبالغة في مقدارها .

أما أنها تشتمل على مبالغة في إثبات الصفه فلأن الانتقال فيها من الملزوم إلى اللازم ، فهي كدعوي الشيء بالبينة والبرهان ، بيان ذلك : أنك إذا قلت في وصف الرجل بالشجاعة : « رأيت أسداً ماسكا سيفه يحارب أعداءه » فأنت تريد أن تثبت له أنه أسد ، وقد أقمت الدليل على ذلك بإثبات الأسدية له حين أدعيت أنك لم تر رجلا ، وإنما رأيت أسداً حقيقياً .

يقول ابن يعقوب المغربي : أما الاستعارة ففيها الانتقال ، فإذا قلت : رأيت أسداً في الحمام فأول مايخطر : معنى الأسدية الحقيقية ، والقرينة تصرف عن إرادته فيطلب الذهن المراد للقرينة الصارفة عن الأصل ، فيفهم بمعونة اللزوم وذلك المفهوم هو الشجاع الذى هو لازمه ، فيتقرر في الذهن لكونه بعد الطلب ولـكون الملزوم من شأنه أن يشعر به ، والقرينة أوضحته بواسطة اللزوم ، فـكأنه ثبت مرتين ، كالدعوى مع الدليل . (١)

وأما أنها تشتمل على مبالغة في مقدار الصفة ، فلأن الاستعارة أصلها التشبيه وأن الأصل في وجه الشبه أن يـكون في المشبه به أتم منه وأظهر في المشبه ، فقولك : « رأيت أسداً » يفيد شجاعته أكثر مما يفيد قولك : « رأيت رجلا شجاعاً كالأسد » ؛ لأن الأول : أفاد شجاعة الأسد ، والثاني : أفاد شجاعة دون شجاعة الأسد .

(١) شروح التلخيص : ٢٧٧/٤

يقول ابن يعقوب المغربي : وتزيد الاستعارة عن الكناية والمجاز المرسل بأن السامع لما سمع لفظ الأسد مثلا وانتقل بالقرينة إلى اللازم، الذى هو الرجل الشجاع واستشعر أنه عبر باسم الأسد عن هذا الرجل للمشابهة ، فيستشعر من ذلك أنه بالغ فى التشبيه حتى سرى بينهما وصيرهما من جنس واحد ، بحيث يشملهما الاسم ، فيفهم من ذلك مساواتهما عند المتكلم فى الشجاعة الجامعة لهما ، فهى مبالغة فى التسوية أفادها التعبير عن المشبه بلفظ المشبه به ، لأن ذلك يشعر باتحادهما وكونهما شيئاً واحداً ، وهذه المبالغة لا توجد فى الحقيقة التى هى التشبيه ، كأن يقال : زيد كالأسد ، لأن أصل التشبيه الإشعار بكون الوجه فى المشبه به أقوى ، فلا مساواة .

فقد ظهر أن الاستعارة تفيد المبالغة فى تسوية المشبهين فى الوجه ، وهى مبالغة فى مقدار المعنى ، وتفيد المبالغة فى تقرير اللازم فى الذهن بالانتقال ، وهى مبالغة فى إثبات المعنى . (١)

وإذا كان الأسلوب الاستعارى يحتوى المبالغتين : المبالغة فى إثبات المعنى ، والتى سببها الانتقال من الملزوم إلى اللازم ، والمبالغة فى مقدار المعنى ، لأنها تقتضى قوة الشبه ، وكون المشبه لا يتميز عن المشبه به ، لا أن الشيخ عبد القاهر يرى أن المبالغة فى مقدار المعنى ليس هو سبب المزية فى الاستعارة ، وإنما سببها المبالغة فى إثبات المعنى ، إذ لو كانت الزيادة فى مقدار الصفة هو سبب المزية لكان ينبغى إذا جئت به صريحاً وقلت : « رأيت رجلا مساوياً للأسد فى الشجاعة ، وبحيث لولا صورته لظننت أنك رأيت أسداً ، وماشا كل ذلك من ضروب المبالغة ، أن تجد لكلامك المزية التى تجدها لقولك : « رأيت أسداً » وليس يخفى على عاقل أن ذلك لا يكون . (٢)

د. أيوب عبد العزيز بدران
مدرس البلاغة والنقد
بقسم اللغة العربية وآدابها

---

(١) شروح التخليص ٤ : ٢٧٨   (٢) دلائل الاعجاز : ٢٨١